القراءة والتعليم

بقلم الأستاذ المغفل محمود المغيف

يعتبر أساطين التربية القراءة وسيلة من أهم وسائل التعليم ، وهي فضلا عن أهميتها من أيسر السبل وأوضحها وأقربها وصولا إلى الغرض المنشود .

فبالقراءة تتفتح أمام المرء آفاق متنوعة من المعرفة ، وتظهر له ألوان مختلفة من الحكمة إذ بها يطلع على آراء المعاصرين والمتقدمين فيكون كالنحلة تنتقل من زهرة إلى زهرة ومن بستان إلى بستان

وكلما تقدم الانسان فى القراءة ، زادت معارفه وضوحا فى ذهنه ، وارتباطا بعضها ببعض لأن كل فكرة تلقى ضوءا على غيرها فتتكشف النواحي المختلفة وتنجلى المعانى الغامضة .

والعقل بهذا كله يزداد اتزانا ومقدرة على الحكم والنقد ، فأنه بمقارنته بين طرق العقول المختلفة فى البرهان والحكم ، ومقدار ما فى تلك الطرق من قوة أو ضعف ومن خطأ أو صواب ، وبمقارنته بين رأى ورأى وبين مذهب ومذهب ، ثم بوقوفه على طائفة متنوعة من المعارف ، تهيأ له سبل الاستنتاج الصحيح والبرهان المستقيم .

هذا إلى أن الأوصاف الشائقة والأخيلة الرائعة ، تلهب الخيال وتصلح الذوق والآثار الوجدانية من شعر أو قصص تستثير العواطف وترقق الطباع وتكسر من شدة النفس .

وبالقراءة تقف على سير أنبيائنا الأخيار وأسلافنا الأبطال من قادة ومصلحين وفى ذلك ما فيه من تقويم الخلق واستنهاض الهمم .

والقراءة وسيلة من أهم الوسائل لخلق الرأى العام وتكييف الذوق العام فى الأمة فهى التى تقرب الأفهام وتساعد على تبادل الآراء بغاية الدقة والوضوح .

وفوق هذا نجد فى القراءة نوعا من التسلية يبهج النفس ويثلج الصدر ويصرف المرء عن مفاسد الفراغ ومهاوى الجدة وزلات الشباب ، فتسمو بذلك الروح إلى آفاق المعالى وتسبح فى أجواء الطهر والنزاهة .

تلك هى أهم فوائد القراءة . ولكن هل ترى فى معرفتها ما يكون حافزا للناس إليها ؟ كلا . فالقراءة عادة يعودها الأطفال من نعومة أظفارهم ، فتغرس فى نفوسهم وتكبر معهم .

عرف الآباء والمربون ذلك فنراهم فى أوروبا وأمريكا يعودون الأطفال من سنيهم

الأولى المطالعة ويحببونها إليهم بشتى الوسائل .

فى ذلك العهد يكون الطفل ميالا إلى معرفة كل شىء ، ويكون للخيال السلطان الأكبر على عقله ، فهو يتخيل أكثر مما يفكر ، وتلك فرصة طيبة يستغلها المربون أحسن استغلال فيقدمون إلى الأطفال طائفة من القصص تناسب أعمارهم فى عباراتها ومغزاها مطبوعة بشكل يجذب الأطفال فتناثر فوق صفحاتها الصور الملونة ويغلفها ورق صقيل مفعم بالزخرف والألوان ، ولذلك يلتهمها الأطفال التهاما ويقرأونها فى شغف عظيم حتى لتكاد تصرفهم عن ألعابهم ، وهكذا يترجح الأولاد بين اللعب والمطالعة منذ فجر حياتهم .

ولقد رتبت الكتب ترتيبا فنيا وقسمت إلى طوائف حسب السن ودرجة الاستعداد وبذلك فكلما تقدم الطفل فى السن ألقى إليه الكتاب المناسب ، فمن مرحلة الخيال الجامح الغريب إلى مرحلة الخيال المنظم ، ثم إلى دور التفكر والتعقل الذى تصحبه الأنغام الوجدانية الرقيقة ، حتى يعرف الصبى طريقه فيتجه الاتجاه الذى يوافق ميوله وطبعه . وهكذا تصبح القراءة عادة يصعب الإقلاع عنها .

أما عندنا فالقراءة فى أحوال كثيرة واجب لا غير أو عبء ثقيل مملول ، ويندر أن تجدها تيارا متصلا منظما بل إنك لتجدها على فترات ، وفى جو مشبع بالاضطراب والسأم وسوء الفهم .

تحدث الصبى عندنا أو تشرح له درسا فإذا بك جهله بما يحيط به وضآلة معارفه بالنسبة لسنه وبصدمك تبلد خياله وسقم وجدانه ، وما ذلك إلا لقلة محصوله من القراءة ، فى حين أنك إن حدثت صبيا فى سنه من بلد تخلصت من شر الأمية ، يعجبك منه توثب خياله وبدهشك كثرة معلوماته وتجد لديه من الخبرة إن كان فى سن العاشرة مثلا ما لا تظفر بمثله من كثيرين عندنا ممن تبلغ سنهم الثامنة عشرة

ليست أغلاط فى ذلك فعندنا كثير وكثير لا يعرفون شيئا عن أبسط المخترعات أو عن المواقف التاريخية الشهيرة ، أو عن مشاهير الكتاب والشعراء وغيرها من المعارف الضرورية وإنى كنت أشك فى ذلك فأدخل فصلا من الفصول الدراسية وانظر ما فيها من قصور .

والذى نأسف له أن أطفالنا كغيرهم من الأطفال فى سائر بلاد الله يدفعهم حب الاستطلاع كما يدفع غيرهم وتتوفر لديهم الميول الفطرية كما تتوفر عند غيرهم ولكنهم إذا شبوا — وأقصد المتعلمين منهم — التوت عليهم الطرق وأصبحوا فى لبس مما يدعون أو يأخذون .

أما هؤلاء المساكين الذين يتخطبون فى دياجير الأمية فلا سبيل لنا معهم إلا إنقاذهم أولا من هذا الداء العياء

إن تلك الأمية عقبة كؤود تعرض كل سبيل من سبل الإصلاح . كيف نطمع يربك فى تعويد الأطفال المطالعة ومعظم أطفالنا جهلاء ومعظم آبائهم لا يعرفون القراءة والكتابة ؟ !.

إن عملنا إن أردنا نشر هذه الفضيلة سيظل قاصرا على أبناء المدارس أو بعبارة أخرى على أولئك السعداء الذين نجوا من ظلمات الأمية . وكتب المطالعة عندنا الآن ولله الحمد تخطو فى هذا السبيل خطوات مباركة محمودة . وبهذه المناسبة يسرنى أن أشير هنا إلى محاولتين حديثتين ترميان إلى تحبيب القراءة إلى الأولاد ، أولاهما تلك المجلة الجميلة النافعة التى تصدر عن الفصول التجريبية بمعهد التربية واسمها «منير التلميذ» وهى كفيلة باجتذاب كل تلميذ بما تحوى من موضوعات شائقة مفيدة وبالعدد الأخير منها قصة مترجمة عن الإنجليزية بقلم الأديب الكبير الدكتور محمد عوض محمد ، كم تمنيت لو أتيح لأطفالنا جميعا قراءتها وإسعاد نفوسهم بها ، وثانيهما المحاولتين ، تلك الأقاصيص الشائقة التى يصدرها الأستاذ كامل كيلانى خاصة بالأطفال.

ولكن هل يكفى ذلك لتكون القراءة عندنا أداة لإصلاح المجتمع وتوجيهه فى مجموعه وجهة خاصة يظهر فيها ذوقه العام ورأيه العام ؟

الواقع أننا سنظل بعيدين عن هذا مادامت الأمية فاشية أظفارها فى البلاد وإن اليوم الذى يشعر فيه أبناء الأمة شعورا موجدا هو اليوم الذى تنعدم فيه الأمية

لست أقصد أن يصبح الناس جميعا فلاسفة ، إنما أقصد أن يتمتع أبناء الأمة جميعا بقسط من الثقافة ينظم حياتهم ويوحد ميولهم ، أرجو أن يكون الزارع والصانع والتاجر والحوذى من ذوى الحرفة ، ممن يستطيعون القراءة ، فإن هذه القراءة تفيدهم أعظم فائدة فى مهنهم ، إذ بها يعرفون أحوال مجتمعهم وينهضون بتربية أبنائهم على خير ما يرجو المجتمع ، هذا إلى ما فى القراءة من تهذيب الخلق والسمو بالنفس .

أرأيت إذن عظم المهمة التى تضطلع بها أيها المدرس ؟ ثم عن ساعديك أيها المعلم الأول الذى تحارب الأمية فأنك لعمر الله تقدم إلى بلادك خدمة تضعك فى الصدر من صفوف المجاهدين

نحن الآن فى مفترق الطرق ، أو على أبواب عهد جديد ، وأنت الذى تضع بذور ذلك العهد المستنير ، وسيأتى اليوم الذى يعطيك المجتمع فيه حقك بعد أن عرف لك قدرك .

شمر عن ساعديك وليكن لك من شرف مهنتك ما يعوض عليك مآلة مرتبك ومن خطر مهمتك مايرفع بين الناس رأسك . ومن عظم مجهودك وبركة ثمارك ما يعوض عليك تعبك

أيها المجاهد الهادىء الوديع ، أيها الجندى المتواضع ، تقدم فلن ينكر عليك أحد شرف الانتصار إلا إذا استطاع أن ينكر على الجندى فى الصف ما يعزى إليه من شرف بعد انتهاء المعركة ؟

محمود الخفيف